الأمانة العامة
العتبة
المقدسة

إن كنت عاقلًا
فكيف تكون ملحدًا؟!



Daleel

Al-Daleel Foundation
for Doctrinal Studies

سلسلة إصدارات
مؤسسة الدليل
الكراس 7

الإصدار 7 | سلسلة إصدارات مؤسسة الدليل

إن كنت عاقلاً

فكيف تكون ملحدًا؟!

مؤسسة الدليل
للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Foundation
for Doctrinal Studies

http://aldaleel-inst.com
www.facebook.com/aldaleel.inst

بسم الله الرحمن الرحيم

هويّة الكراس

اسم الكراسة: إن كنت عاقلًا
المؤلّف: الدكتور أيمن المصري
المراجعة العلميّة: المجلس العلميّ في مؤسّسة الدليل
التقويم اللغويّ: علي گيم
تصميم الغلاف: محمدحسن آزادگان
الإخراج الفنّيّ :فاضل السوداني
الناشر: مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة

مؤسسة الدليل
للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Foundation
for Doctrinal Studies

http://aldaleel-inst.com
www.facebook.com/aldaleel.inst

كلمة المؤسسة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خير الأنام والمرسلين أبي القاسم محمّدٍ وعلى آله الطيّبين الطاهرين، وبعد.

تعدّ المنظومة الفكريّة العقديّة من أهمّ دعائم شخصيّة الإنسان وتميّزه البشريّ؛ فهي الّتي تحدّد نظرته العامة للكون وعلاقته به، ولها تأثير مباشرٌ على مساره السلوكيّ وطبيعة تعاطيه مع محيطه ونمط الحياة الّتي يعيشها، هذا على صعيد الفرد، وأمّا على صعيد المجتمع فإنّ المنظومة الفكريّة العقديّة تنعكس على مجمل العلاقات بين أفراد المجتمع، كما أنّها تحدّد نوع النظم (السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة) الّتي تحكم تلك العلاقات.

وعلى هٰذا فالمنظومة الفكريّة والعقديّة تتحكم بمصير الإنسان،

فإمّا أن تصنع له سعادةً واستقرارًا وحياةً كريمــةً، وإمّــا أن تغرقــه في شقاءٍ وفوضى وإذلالٍ.

فينبغي للإنسان أن يعتني بعقيدتــه، وأن يطمــئنّ لســلامتها مــن الانحراف والتشويه، وأن يبادر لمعالجة ما يشوبها بسبب الشبهات.

فاليوم وفي ظلّ الظروف الراهنة الّــتي يعيشــها العــالم الإســلاميّ بشكلٍ عامٍّ، وبلدنا العراق بشكلٍ خاصٍّ، ندرك أنّ هناك تهديدًا كبيرًا للفكر والعقيدة الإسلاميّة الحقّــة ومــن دوائــر مختلفــةٍ، ونستشــعر حاجة مجتمعنا الماسّة والملحّة لبيان معالم العقيدة الصحيحة، ورفــع الشبهات الّتي ألبست على بعض الناس عقائدهم.

من هنــا جــاء مشــــروع مؤسّســة الدليــل للبحــوث والدراســات العقديّة التابعة للعتبــة الحســينيّة المقدّســة؛ تلبيــةً لهٰــذه الحاجــة، وليحمل على عاتقه مسؤوليّة التصدّي لدفع الشبهات، والتأكيــد على العقائد الحقّة بالوسائل والإمكانيّات المتاحة؛ وذٰلك للمساهمة في سدّ الفراغ الفكريّ العقديّ الّذي يعاني منه المجتمع.

ومن أبرز تلك الوسائل المعتمدة في مشروعنا أسلوب البحث وفق رؤيةٍ علميّةٍ موضوعيّةٍ، وبخطابٍ ســلسٍ شــيّقٍ يتنــاغم مــع أغلــب شرائح المجتمع، فكان قرار المجلس العلميّ الموقّر في المؤسّسة إطلاق مشروع سلسلة الكرّاسة العقديّة، وهي مؤلّفــاتٌ مــوجزةٌ في شــكلها

وحجمها، كبيرةً في مضمونها وأهدافها؛ لمعالجة موضـوعاتٍ محـدّدةٍ، وحسب الحاجة الفعليّة.

وبعد انفتاح الساحة الفكريّة والعقديّة وتطوّر وسـائل التواصـل الاجتمـاعيّ وسـهولة اقتنائهـا في عراقنـا الحبيـب وبقيّـة الدول الإسلاميّة، ونتيجة استغلال ذٰلك من بعض الجهـات والشخصـيّات ذات المشاريع الفكريّة المنحرفة عن جادّة الصواب، في نشر الأفـكار المعادية للاعتقاد الدينيّ، ومـن أهمّهـا الفكـر الإلحـاديّ واللاديـنيّ وفصل الدين عن الحياة، رأت المؤسّسة طرح مجموعـةٍ مـن البحـوث على شكل كراريس توضّح حقيقة مثل تلـك الأفـكار والأطروحـات، فكان منها هٰذه الكرّاسة الموسومة (إن كنـت عاقـلًا فكيـف تكـون ملحدًا؟!).

وختامًا تتوجّه مؤسّسة الدليـل بالشـكر الجزيـل لعضـو المجلـس العلميّ فيها الأستاذ الدكتور (أيمن المصري)؛ لما بذله من جهدٍ قيّمٍ في كتابة هٰذا البحـث، ونرجـو له التوفيـق والسـداد، والحمـد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وآله الطيّبين الطاهرين.

المُقَدَّمَة

هٰذه الرسالة المختصرة في محتواها، العميقة في معناها، لم أكتبها لأجل شخصٍ معيّنٍ، أو لجماعةٍ أو طائفةٍ محدّدةٍ ذات دينٍ أو مذهبٍ أو اتّجاهٍ فكريٍّ خاصٍّ، بل كتبتها من أجل الإنسان من حيث هو إنسانٌ.

والإنسان إنّما صار إنسانًا، لا لقوّته الجسمانيّة، أو لقدراته الحسّيّة والخياليّة، وغرائزه الحيوانيّة، الّتي يشاركه فيها سائر الحيوانات، والكائنات الحيّة الّتي قد تتفوّق عليه فيها؛ بل صار إنسانًا لقوّته العقليّة السامية الّتي يستطيع أن يميّز بها بين الحقّ والباطل في الاعتقاد، والخير والشرّ في الأفعال، أو بعبارةٍ أخرى بين الخطإ والصواب في الأمور النظريّة، والحسن والقبيح في الأمور العمليّة.

وقد استطاع الإنسان بعقله أن يستكشف الكثير من جوانب هٰذه العالم الطبيعيّ، ويتطوّر في كلّ شؤون حياته المادّيّة، في مأكله ومشربه، وملبسه ومسكنه، ووسائل انتقالاته وارتباطاته، في حين ظلّت سائر الحيوانات على ما هي عليه في حياتها منذ القدم.

ولٰكن ـ وللأسف الشديد ـ نجد في ظلّ هٰذا التقدّم الحضاريّ المادّيّ الكبير حالةً شديدةً من الانحطاط الفكريّ والمعنويّ، حيث أصبحت الحالة الفكريّة تعمّها الفوضى والعشوائيّة ، بلا أيّ ميزانٍ ضابطٍ، وظهرت الأفكار الدينيّة المتطرّفة والخرافيّة، ومايقابلها من الأفكار المادّيّة، بالإضافة إلى حالة الضياع والفساد الأخلاقيّ والتفكّك الاجتماعيّ، والتناحر الطائفيّ، والحروب العالميّة والإقليميّة.

فهٰذه الازدواجية التي تعيشها مجتمعاتنا البشرية بين التطوّر المادّيّ والانحطاط المعنويّ، إنّما مرجعه إلى شيءٍ واحدٍ، وهو الازدواجيّة في التعامل مع العقل، إذ نستعمل العقل في حياتنا المادّيّة ونعطله في حياتنا المعنويّة.

ومبدأ هٰذا التعطيل يكمن في أمرين أساسيين، الأوّل توهّم عدم وجود قوانين علميّةٍ موضوعيّةٍ للعقل في الموضوعات المعنويّة الغيبيّة غير المحسوسة، كما هي له في الموضوعات المحسوسة كالفيزياء

والرياضيّات، والثاني هو وجود قـوًى وتيّـاراتٍ سياسـيّةٍ واجتماعيّـةٍ تعارض اعتماد العقل في بناء رؤيتنـا الكونيّـة، وتدخّلـه في حياتنـا الاجتماعيّـة؛ خوفًـا مـن نهضـة الشـعوب، وأن تفقـد مصـالحها الاجتماعيّة والسياسيّة، وهيمنتها على الناس في ظل الرقابة العقليّـة العادلة، حيث ترى مصالحها في تغييب وعي الشعوب، والقضاء على إنسانيّتها وكرامتها؛ لتسير خلفها مغمضة العينين.

ومن الظواهر الغريبة والخطيرة الّتي ظهرت وتفشّت بين الشـباب في عصرنا الحاضر نتيجة هٰذه الازدواجيّة، هي ظاهرة الإلحـاد، الّـتى تنكّرت لوجود المبدإ الإلهيّ لهٰذا الكون، على خلاف اعتقاد الأغلبية الساحقة للناس في كلّ زمانٍ ومكانٍ، وانتهزت فرصة التدنّي الفكريّ والثقافيّ عند أكثر الناس، وتفشـّي التطرّف الدينيّ الّذي أساء للدين أكـثر مـن أعدائـه، واسـتغلّت المشـاكل النفسـيّة والاجتماعيّـة والاقتصاديّة لدى أكثر الشباب؛ لـكي تنفـذ إلى عقـولهم ونفوسـهم، وتفرض عليهم بمختلف الحيل والوسائل القيم والمبادئ الإلحاديّة.

وما زاد الطين بلّةً هو ادّعاء هٰذا التيّـار الإلحـاديّ شـعار العقـل والعقلانيّة، وأنّ العقل السليم هو الّذي يسوقنا إلى الإلحاد، فمسّـت الحاجة لبيان زيف هٰذا الادّعاء بأسلوب مـنطقيٍّ هـادئٍ بعيـدًا عـن التعصّبات المذهبيّة أو الأحكام المسبقة الدينيّة.

فكان الموضوع الّذي نبحث عنه في هٰذه الرسالة هو وضع ظاهرة الإلحاد بوصفها ظاهرةً فكريّةً في ميزان العقل السليم؛ لنرى مدى مطابقتها للأحكام العقليّة الّتي يدّعون الانتساب إليها، حيث سنبيّن أنّ العقل السليم - ونعني به العقل البرهانيّ المبتني على المبادئ الأوّليّة الفطريّة الصادقة - يسوق الإنسان بطبعه للإيمان بالله تعالى، وأنّ الفكر الإلحاديّ يخالف تمامًا العقل السليم، وسنبيّن حقيقته وقوانينه الخاصّة، ورؤيته الكونيّة النظريّة عن الإنسان والمبدإ والمعاد، ورؤيته العمليّة الأخلاقيّة، ثمّ نتعرّض لبيان منهج تفكير الملحد ورؤيته النظريّة والعمليّة في الحياة؛ لكي يتبيّن للكلّ - سواءٌ الشباب المؤمن المتردّد أم المغرّر بهم - أن عقلانيّة الإلحاد هي في الواقع عقلانيّةٌ وهميّةٌ مزيّفةٌ، وأنّ مقتضى العقل السليم، والفطرة الإنسانيّة هو الإيمان بخالق هٰذا الكون الحكيم.

أوّلًا: المنهج المعرفيّ العقليّ

1. الإنسان والعقل

إنّ إنسانيّة الإنسان لا تتجلّى في كونه حرًّا طليقًا يفعل ما تشتهيه نفسه، كما يحاول أن يصوّر لنا ذٰلك المادّيّون والملحدون، فالحرّيّة ـ وإن كانت أمرًا مهمًّا ، وشرطًا ضروريًّا في تكامل الإنسان ـ شأنٌ يشترك فيه الإنسان مع سائر الحيوانات الّتي تنشد الحرّيّة أيضًا، ولٰكن تتجلّى إنسانيّته في ظهور عقلانيّته الحقيقيّة، من التأمّل والتفكّر والتدبّر في رؤيته للحياة ونظرته للواقع قبل تبنّي اعتقاده بها، وفي التأنّي والتروّي في أفعاله وتصرّفاته قبل صدورها عنه؛ من أجل أن يتكامل في صراط الإنسانيّة، ويستحقّ أن يكون سيّد الكائنات.

2. معالم الصحّة العقليّة

بعد أن بيّنّا أنّ حقيقة الإنسان بعقله، لا بجسمه، وأنّه جزءٌ لا يتجزّأ من وجوده، فيكون حاله كحال سائر أعضاء البدن في كونه في معرض الصحّة والمرض، وبما أنّه أداة الإنسان الوحيدة للتفكير،

فتكون صحّته في صحّة التفكير، ومرضه في سقم تفكيره، فعلينا أن نبحث أوّلًا عن حقيقة التفكير، وأهمّيّته في حياة الإنسان، ثمّ نتعرّض لبيان قوانينه الطبيعيّة.

تعريف التفكير:

عرّف إدوارد دي بونو أحد أبرز علماء التفكير المعاصرين عمليّة التفكير بأنّها «استكشافٌ مدروسٌ للخبرة بغية الوصول إلى الهدف، وهو إمّا تحقيق الفهم أو الحكم على الأشياء، أو حلّ المشكلات أو التخطيط واتّخاذ القرارات»[1]، أي البحث المنظّم للمعلومات الذهنيّة لتصوّر الأشياء أو التصديق بها؛ لحلّ المشاكل المختلفة الّتي تواجهنا في الحياة.

ونحن إذا أردنا أن نغوص أكثر ونحلّل عمليّة التفكير بالوجدان والتأمّل العقليّ، نجد أنّها حركة الذهن من المعلومات الحاضرة في أذهاننا لاستكشاف المجهولات والتعرّف عليها، فهي في الواقع حركةٌ من المعلوم إلى المجهول لاكتساب المعرفة الجديدة.

وبناءً عليه فإنّه يصبح من الواضح أنّ المعلومات الّتي ينطلق منها

---

(1) دوارد دي بونو، التفكير والبحث العلميّ، ص ٢٦.

الذهن في تفكيره هي حجر الأساس الّذي نبني عليه تفكيرنا للوصول إلى النتائج المطلوبة، وبالتالي فإنّ صحّة النتائج أو سقمها الّتي نصل إليها تعتمد بصورةٍ كلّيّةٍ على صحّة تلك المعلومات الأوّليّة الّتي ننطلق منها، أو سقمها.

وينقسم التفكير بحسب موضوعاته إلى تفكيرٍ حسّيٍّ في المعلومات المحسوسة، يستعين فيه العقل بالحسّ والتجربة، كالتفكير الرياضيّ أو الفيزيائيّ، وإلى تفكيرٍ عقليٍّ مجرّدٍ في المعلومات غير المحسوسة، وهو ما نسمّيه بالتفكير الفلسفيّ أو الميتافيزيقيّ، الّذي يمثّل حقيقة التفكير العقليّ الإنسانيّ؛ لأنّه تفكيرٌ عقليٌّ خالصٌ، ومستقلٌّ عن أيّ أدواتٍ معرفيّةٍ أخرى.

أهمّيّة التفكير الفلسفيّ في حياة الإنسان

لا يخفى على أحدٍ أهمّيّة عمليّة التفكير الفلسفيّ في حياة الإنسان؛ إذ إنّه يتولّد من خلالها المنظومة الفكريّة للإنسان، والّتي تتضمّن رؤيته النظريّة الكونيّة عن فلسفة الكون والحياة، والهدف من وجود الإنسان في هٰذا العالم، ومصيره بعد الموت، وما هو طريق الخير والسعادة، كما تتضمّن تلك المنظومة أيضًا رؤيته العمليّة عن القيم والمبادئ الأخلاقيّة والاجتماعيّة الّتي ينبغي أن يتحلّى بها

الإنسان ويلتزم بها في سلوكه وأفعاله، والّـتي تـنعكس مبـاشرةً على نمط حياته اليوميّة (life style)، وبالتالي فـإنّ التفكـير الصـحيح يؤدّي إلى الفكر الصحيح والرؤية الواقعيّة والسـعادة الحقيقيّـة، على خلاف ما إذا كان التفكير خاطئًا، فإنّـه يجلـب على صـاحبه الحـيرة والتعاسة والشقاء.

قواعد التفكير الصحيح:

عندما نتكلّم عن قوانين الفكر أو التفكير، فنعني بهـا القـوانين العقليّة العامّة الّـتي يعتمـد عليهـا العقـل في تصـوّره وحكمـه على الأشياء، سواءٌ كانت تلك الأشياء محسوسةً أو غـير محسوسـةٍ؛ إذ إنّ العقل واحدٌ وقانونه واحدٌ.

فعقل الإنسان كأيّ جزءٍ من أجزاء وجـوده، مثـل المـخّ والقلـب والكبد والكليتين، له وظائفه الفيزيولوجيّة الطبيعيّة الّـتي يعمـل على مقتضاها في حالتـه الصـحّيّة، ويختـلّ عملـه باختلالهـا، فيصـاب بالمرض العقليّ.

إذن فللعقل قوانينه الطبيعيّة كسائر أعضاء جسم الإنسان، بـل كأيّ شيءٍ في عالم الطبيعة، ولٰكنّ الفارق هو أنّ عمل العقـل أثنـاء التفكير هو فعلٌ اختياريٌّ للإنسان العاقل، بمعنى أنّه قد يراعي تلك

القوانين الطبيعيّة أو لا يراعيها، مثل الإنسان الّذي قد يراعي بإرادته تناول الغذاء المناسب لمعدته وطبيعته، فيصحّ، أو لا يراعي، فيمرض.

وكما اكتشف الأطباء بالتجربة القوانين البيولوجيّة لأعضاء جسم الإنسان، ودوّنوها في كتبهم الطبّيّة، وأصبحت معيارًا للصحّة الجسميّة، فقد اكتشف الحكماء تلك القوانين العقليّة الطبيعيّة بالتحليل العقليّ، ودوّنوها في كتبهم المنطقيّة؛ لتصبح معيارًا للصحّة العقليّة.

ولٰكنّ جهل عوامّ الناس بهٰذه القوانين للأسف الشديد، وسعي الخواصّ منهم سواءٌ من المنتسبين إلى الدين أو من المادّيّين المنتسبين إلى العلم للتشكيك في هٰذه القوانين الفطريّة؛ من أجل تعطيل عقول الناس والهيمنة عليهم بشتّى الطرق والوسائل المضلّلة، بعد سلبهم أعزّ ما لديهم من العقول، حيث يسهل انقيادهم إليهم بعد ذٰلك، فيتمكّنون من العبث بالمجتمعات البشريّة كما يحلو لهم بعيدًا عن القوانين المنطقيّة والرقابة العقليّة... كلّ هٰذا أدّى إلى تمرّد الناس على تلك القوانين الفطريّة الإنسانيّة، وهجرانها، واستبدال غيرها من العقائد الوهميّة بها، والأعراف الاجتماعيّة والاستحسانات الشخصيّة والخرافات.

وبما أنّ المقام لا يسع هنا للبيان التفصيليّ لتلك القواعد العقليّة المنطقيّة، نكتفي فقط بالبيان الإجماليّ لمبادئها الكلّيّة:

نحن إذا قمنا بتحليل المعلومات الموجودة لدينا نجد أنّها تتفاوت في الوضوح والإبهام بالنسبة إلى عقولنا، فهناك مفاهيم واضحةٌ عند كلّ العقول لا تحتاج إلى ما يبيّنها، مثل مفهوم الذات والوجود والعدم، والضرورة والاستحالة والوجوب والإمكان و...، وهناك مفاهيم مبهمةٌ تحتاج إلى من يوضّحها لنا، مثل مفهوم الذرّة والبروتون، والطاقة، والنفس والروح والإله، كما أنّ هناك قضايا يصدّق بها العقل بنحوٍ تلقائيٍّ بعد تصوّر معانيها، ولا تحتاج إلى دليلٍ يدلّ عليها لوضوحها عند العقل، مثل امتناع اجتماع النقيضين، بمعنى امتناع اجتماع الإثبات والنفي، كأن نحكم بأنّ هٰذا الجسم أسود وليس أسود في الوقت نفسه، أو اجتماع الضدّين، كأن نحكم بأنّ هٰذا الجسم أبيض وأسود في الوقت نفسه، أو أنّ كلّ شيءٍ هو نفسه، مثل أنّ الإنسان إنسانٌ، أو ضرورة احتياج كلّ شيءٍ حادثٍ إلى سببٍ يخرجه من الوجود إلى العدم، وهو المسمّى بأصل العلّيّة، وأنّ الكلّ أعظم من جزئه، وهٰكذا.

وهناك على العكس من ذٰلك قضايا ومسائل غامضةٌ تحتاج إلى دليلٍ يثبت صحّتها، مثل أنّ الجسم يتركّب من ذرّاتٍ، وأنّ الذرّة

تتكوّن من إلكتروناتٍ وبروتوناتٍ ونيترروناتٍ، أو أنّ الطاقة تتحوّل إلى مادّةٍ، والمادّة تتحوّل إلى طاقةٍ، أو أنّ هناك إلٰهًا خالقًا ومصمّمًا لهٰذا الكون، أو أنّ هناك حياةً بعد الموت، وغير ذٰلك من القضايا غير البدهيّة الّتي تفتقر إلى دليلٍ يدلّ عليها.

وبناءً على ما بيّنّا، فإنّ قانون التفكير العقليّ المنطقيّ الصحيح، هو أن نبدأ تفكيرنا بالاعتماد على قضايا واضحةٍ كهٰذه لإثبات القضايا غير الواضحة عند العقل، وهٰذا هو ما نسمّيه بالتفكير العقليّ البرهانيّ، وهو المقصود هنا في هٰذه الرسالة.

أمّا أن نبدأ من مفاهيم غامضة بالنسبة لنا، أو نعتمد على قضايا مناسبةٍ لأوهامنا الحسّيّة، أو آراء عرفيّةٍ مأنوسةٍ لدينا، أو نركن إلى آراء أكابرنا من الآباء أو رجال الدين أو العلماء المشهورين الموثوقين عندنا، أو ننطلق من مبادئ نستحسنها ونحبّ أن نصدّق بها؛ لانسجامها مع أهوائنا، أو انطباقها مع مصالحنا الدنيويّة ـ كما يفعل أكثر الناس ـ فهٰذا لن يقودنا إلّا إلى الخطإ والحيرة والضلال.

وقد فصّل الحكماء منذ قديم الزمان في كتب المنطق كيفيّة الانتقالات الصحيحة من المعلوم إلى المجهول بنحوٍ واضحٍ ومنظّمٍ وموضوعيٍّ، بحيث يكون منارةً للباحثين، وهدايةً للمسترشدين

ولٰكن وللأسف الشديد، فقد سعى المفكّرون الغربيّون في العصر

الحديث، وما يسمّونه عصر التنوير من أمثال بيكـون ولـوك وهيـوم وكانط، وأصحاب الوضعيّة المنطقيّة، وراسل وويتجنشتاين وغيرهم، إلى التشكيك في هٰذه القوانين العقليّة المنطقيّة الواضحة والواقعيّـة، وإلى إثبات عجز العقل عن الخوض في عالم مـا وراء الطبيعـة، ممّـا أدّى إلى إغلاق باب الفلسفة الإلٰهيّة، وشـيوع الشـكّ والسفسـطة، والتفكّرات المادّيّة المحضة، ممّـا أوجـد مناخًـا عامًّـا لـكي تترعـرع الأفكار الإلحاديّة في عصر التنوير وما بعده، بعد ضياع المنهج العقليّ البرهانيّ القويم، وأبدله بالأحكام الوهميّة والخياليّة.

ثانيًا: الرؤية الكونيّة العقليّة

مقصودنا من الرؤيـة الكونيـة العقليّـة، هي النظـرة التفسـيريّة العامّة للكون والحياة، الّتي تتعلّق بحقيقة الإنسان ومبدئه ومنتهاه، والغاية من الحياة، على أساس المنهج العقليّ البرهانيّ القويم.

ونحـن لا يسـعنا في هٰـذه الرسـالة القصـيرة أن نسـتعرض جميـع المباحث الفلسفيّة الّتي أثبتها الحكماء بعقولهم القويمـة المسـتنيرة، ولٰكن سنقتصـر على الإشارة إلى بعض القواعـد العقليّـة الفلسـفيّة الّتي يضـرّ الجهـل بهـا، ويـؤدّي إغفالهـا إلى الإلحـاد أو الانحـراف الفكريّ.

قانون العلّيّة:

يشير قانون العلّيّة إلى أنّ أيّ شيءٍ حادثٍ في الوجود ـ بمعنى أنّه لم يكن ثمّ كان ـ يستحيل أن يخرج من العدم إلى الوجود بنفسه، بل يفتقر إلى سببٍ غيره يُخرجه من العدم إلى الوجود. ويُعد هٰذا القانون من الأصول العقليّة البدهيّة كما سبق وأن أشرنا؛ لأنّ إنكاره يستلزم اجتماع النقيضين مباشرةً؛ لأنّنا نقول إنّ وجود الحادث إمّا أن يكون قد أخرجه غيره من العدم إلى الوجود، وهو المطلوب، وإمّا أن يكون قد خرج وجوده من العدم تلقائيًّا، والحال أنّ العدم لا يتضمّن الوجود، أو يكون قد أخرج نفسه من كتم العدم، والحال أنّه معدومٌ وفاقدٌ للوجود، وفاقد الشيء لا يعطيه.

وكلّ من أنكر قانون العلّيّة من أمثال دافيد هيوم ـ كما سيأتي ـ أو غيره من المادّيّين والملحدين كريتشارد دوكينز[1] أو ستيفين هوكنج[2]، فهو لجهلهم بمعناه وحقيقته؛ ولذٰلك نراهم يعيشون حالةً من التخبّط والتناقض، حيث نجدهم في بحوثهم العلميّة والفكريّة يبحثون عن علل الظواهر الطبيعية وأسبابها، أو أسباب نشأة الكون وتطوّره، مع إنكارهم لأصل العلّيّة!

---

(1) ريتشارد دوكينز، وهم الإلٰه، ص ٨٠.

(2) ستيفن هوكنج، التصميم العظيم، ص ٢١٦.

قانون السنخيّة:

وهو فرع قانون العلّيّة، فكما أنّ أصل وجود المعلول من علّته، فكذٰلك خصوصيّاته الذاتيّة تكون من خصوصيّات علّته، وإلّا استلزم خروج الوجود من العدم، وهٰذه الخصوصيّة هي الّتي تسوّغ وتصحّح صدور معلولٍ معيّنٍ من علّته الفاعلة له دون غيره من المعلولات، وإلّا لصدر أيّ شيءٍ من أيّ شيءٍ، فنحن مثلًا إذا رأينا كتابًا فلسفيًّا مثل (الشفاء)، عرفنا أنّ صاحبه فيلسوفٌ كبيرٌ كابن سينا؛ لأنّ هٰذه الفلسفة لا تصدر إلّا ممّن يملك ملكة العلم والاجتهاد في الفلسفة، وكذٰلك من قرأ أدبيّات شكسبير يعرف بكلّ بساطةٍ أنّه أديبٌ كبيرٌ وقديرٌ، وإذا رأينا سيّارةً فاخرةً أو حاسوبًا معقّدًا، علمنا أنّ لهما مهندسًا عظيمًا قد قام بتصميمهما.

والخلاصة أنّ الفلسفة لا تخرج من الأديب، ولا العكس، والعلم لا يخرج من الجهل، والنظام لا يخرج من اللا نظام، وهٰذا أمرٌ في غاية الوضوح عند كلّ إنسانٍ يحترم عقله ويصدّقه.

قانون امتناع تسلسل العلل: بمعنى تسلسل العلل الفاعليّة الموجدة للأشياء، بنحوٍ تكون مجتمعةً مع بعضها البعض في الوجود، فمثلًا من المحال أن نقول أن (أ) معلولٌ لـ (ب) في وجوده، و(ب)

معلولةٌ لـ (ج)، و(ج) لـ معلولةٌ لـ (د)، وهٰكذا دون نهايـةٍ تنـتهي عندها سلسلة العلل والمعلولات.

بيان وجه الامتناع: أنّنا إذا اشـترطنا لوجـود أيّ شيءٍ أن يكـون مشروطًا دائمًا بكونه معلولًا لغيره، استحال بهٰذا الشرط أن يـدخل أيّ شيءٍ إلى الوجود.

فمثلًا على سبيل التقريب، لو اشترطنا على مجموعةٍ من النـاس ألّا يدخل أحدٌ منهم إلى البيت إلّا إذا كان مسبوقًا بغـيره، فلـن يـدخل أحدٌ، فإذا وجدنا الناس قد دخلوا البيت، فنعلم أنّ واحدًا مـنهم ـ وهو الأوّل ـ قد خالف هٰذا الشرط ودخل بنفسه، ثمّ دخل الآخرون وراءه بعد تحقّق الشرط. وما نحن فيه كذٰلك، فنفهم أنّ هناك موجودًا أوّلًا قد دخل الوجود دون أن يكـون قبلـه شيءٌ، وهـو العلّـة الأولى لهٰذا العالم، ثمّ صدر عنه سائر الموجودات بالترتيب.

القوّة والفعل:

من المسائل الفلسفيّة الهامّـة هي مـا اكتشـفه الحكمـاء مـن أنّ الشيء إمّا موجودٌ بالقوّة أو موجودٌ بالفعل.

ومعنى الوجود بالقوّة هو شـأنيّة الوجـود، أي وجـود اسـتعداده في المادّة القابلـة له، كوجـود الشـجرة في البـذرة، أو وجـود الطـائر في

البيضة.

وهٰذا الاستعداد يسمّيه الحكماء بالإمكان الاستعداديّ، وهو مقتضى قانون العلّيّة، حيث يمثّل هٰذا الاستعداد العلّة المادّيّة لوجود الشيء، وأيضًا مقتضى قانون السنخيّة، إذ يمثّل خصوصيّة الشيء واستعداده الذاتيّ لتحصيل هويّته الوجوديّة الخاصّة به؛ ولذٰلك نجد أنّ شجرة التفّاح لا تخرج إلّا من بذرتها، لا من بذرة البرتقال، وطائر الحمام من بيضته لا من بيضة الغراب مثلًا.

فالتمايز النوعيّ الموجود بين الأنواع الطبيعيّة، والتمايز الشخصيّ بين أفراد كلّ نوعٍ إنّما هو معلولٌ لاختلاف الاستعدادات الخاصّة بها، المستلزم اختلاف حقائقها أو هويّتها الشخصيّة.

والأمر الجدير بالذكر هنا أنّ هٰذا الامكان الاستعداديّ ليس إلّا قابلًا ومميّزًا للوجود الخاصّ، وليس بفاعلٍ له كما يتوهّم المادّيّون والملحدون؛ لأنّ حيثيّة الاستعداد والقبول هي حيثيّة الفقدان، لا الوجدان، وفاقد الشيء لا يعطيه، فالشجرة أو الطائر غير موجودين في البذرة أو البيضة بالضرورة، وهو أمرٌ واضحٌ بالتشريح والمشاهدة الحسّيّة القطعيّة، وبالتالي فإنّ حصولهما للبذرة أو البيضة إنّما يكون من علّة وجودهما المغايرة لهما، وهي العلّة الإلٰهيّة بالضرورة العقليّة كما سيتبيّن بعد ذٰلك.

وبناءً عليه، فكلّ ما يبحث عنه الفيزيائيّون من نشوء العالم وتطوّره، من أمثال داروين ودوكينز وستيفن هوكنج وغيرهم، إنّما هو بحثٌ يتعلّق بكيفيّة النشوء والتطوّر، لا بعلّته ولمّيّته الوجوديّة الفاعلة، وكلّ ماحاولوا توجيهه من طفراتٍ جينيّةٍ أو تفاعلاتٍ كيميائيّةٍ، أو موجاتٍ كهرومغناطيسيّةٍ، لتبرير حصول الشيء من اللا شيء، فهو لا يسمن ولا يغني من جوعٍ؛ لأنّها كلّها هي معدّاتٌ لإعداد القابل، ومقدّماتٌ لإفاضة الشيء من علّته الفاعلة، وليست بنفسها فاعلةً وموجدةً للشيء؛ لأنّ فاقد الشيء لايعطيه، فافهم ذٰلك جيّدًا.

الممكن والواجب:

إنّ اتّصاف أيّ شيءٍ بأيّ وصفٍ كان، إمّا أن يكون هٰذا الوصف من ذاتيّاته الثابتة له، فهو واجب الثبوت له، مثل اتّصاف البياض بالأبيضيّة، فنقول البياض واجب الأبيضيّة، أي أبيض بالضرورة، أو اتّصاف الجسم بالامتداد، فنقول الجسم واجب الامتداد، أو الإحراق للنار، فنقول النار واجبة الإحراق، وهٰذا الوصف الذاتيّ لا يحتاج إلى علّةٍ لثبوته لموضوعه؛ لأنّ نفس موضوعه هو علّة ثبوته لنفسه.

وإمّا أن يكون الوصف عارضًا غريبًا على الموضوع، فيكون ممكن الثبوت له، مثل اتّصاف الماء بالحرارة، فنقول الماء حارٌّ بالإمكان، أو اتّصاف الجسم بالحركة، فنقول الجسم ممكن الحركة، ومن البدهيّ أنّ اتّصاف الأشياء بمثل هٰذه الأوصاف العرضيّة تفتقر إلى علّةٍ خارجيّةٍ؛ ولهٰذا يقول الحكماء كلّ عرضيٍّ معلّلٌ، فالماء يحتاج إلى النار مثلًا ليكون حارًّا، أو الجسم يحتاج إلى محرّكٍ ليحرّكه من خارجٍ، سواءٌ كان محرّكًا طبيعيًّا كالجاذبيّة، أو إراديًّا كالإنسان.

وقد استفاد الفلاسفة من هٰذه القاعدة المنطقيّة في مباحث الوجود، حيث نظروا في اتّصاف الأشياء بالوجود، فقسّموا الأشياء بحسب اتّصافها الذاتيّ أو العرضيّ بالوجود، إلى واجبة الوجود وممكنة الوجود.

فالواجب الوجود هو الشيء الّذي يكون الوجود ذاتيًّا له، فلا يحتاج إلى غيره ليعطيه الوجود، وقد جعلوا مصداقه الباري ـ تعالى ـ مبدأ سائر الموجودات كما سيأتي بيانه.

وأمّا الممكن الوجود فهو الشيء الّذي يكون الوجود عارضًا على ذاته كسائر الذوات في هٰذا العالم، إذ إنّ له معنًى غير الوجود، فالإنسان مثلًا إنسانٌ في نفسه، سواءٌ كان موجودًا أو معدومًا، بل هو معنى مستقلٌّ عن الوجود، فالوجود عارضٌ على ذاته، فيحتاج إلى

غيره في الاتّصاف بالوجود.

المبدأ الإلٰهيّ وصفاته الكماليّة: وهو من أهمّ المطالب الفلسفيّة عند الحكماء وأشرفها.

وقد أقام الحكماء براهين متعدّدةً على إثبات وجود المبدإ الإلٰهيّ، ترجع جميعها في حقيقتها إلى قانون العلّيّة والسنخيّة.

برهان النظم:

أو ما يسمّى ببرهان العناية أو البرهان الكونيّ

المقدّمة الأولى (حسّيّةٌ تجريبيّةٌ): إنّنا نشاهد نظامًا معقّدًا بديعًا منسجمًا مطّردًا، سواءٌ داخل وجود الإنسان نفسه، أو خارجه في عالم الطبيعة المحيط به، أو في العلاقات الموجودة المتبادلة بينها جميعًا.

المقدّمة الثانية (عقليّةٌ): النظام المطّرد لا يمكن أن يكون اتّفاقيًّا أو ناشئًا من الصدفة العمياء؛ إذ إنّه بناءً على قانون العلّيّة والسنخيّة لا يخرج النظام بنحوٍ مطّردٍ من اللا نظام، بل يحتاج إلى منظّمٍ عاقلٍ وراء هٰذا العالم.

المقدّمة الثالثة (عقليّةٌ): هٰذا المنظّم العاقل إمّا أن يكون هو المبدأ الأوّل، أو ينتهي إلى المبدأ الأوّل منعًا للتسلسل، وهو المطلوب.

برهان الإمكان:

المقدّمة الأولى (عقليّةٌ): نحن عندما نحلّل الأشياء في هٰذا العالم بعقولنا، نجد أنّ لها ذواتٍ في نفسها غير كونها موجودة، وبالتالي فالوجود عارضٌ عليها كعروض الحركة على الجسم، وبالتالي فهي ممكنة الوجود، بمعنى أنّ الوجود ليس ذاتيًّا لها.

المقدمة الثانية (عقليّةٌ): كلّ وصفٍ عارضٍ على الشيء، يحتاج الشيء لاتّصافه به إلى الغير، كما سبق وأن بيّنّا، فالأشياء في اتّصافها بالوجود تحتاج إلى سببٍ غيرها خارجٍ عنها.

المقدّمة الثالثة: هٰذا السبب الخارجيّ الّذي أعطاها الوجود، إمّا أن يكون واجب الوجود، بمعنى كون الوجود ذاتيًّا له، وإمّا أن يكون أيضًا ممكن الوجود يحتاج إلى غيره في الوجود؛ فلا بدّ وأن ينتهي إلى واجب الوجود بذاته دفعًا للتسلسل المحال.

امتياز هٰذا البرهان: هٰذا البرهان يمتاز عن غيره من البراهين بكونه برهانًا عقليًّا محضًا، ويثبت المبدأ الإلٰهيّ بأفضل وصفٍ يتناسب مع شأنه المتعالي، وهو كونه واجب الوجود لذاته بذاته، ممّا يسهل الأمر في معرفة سائر صفاته الكماليّة كما سيأتي في المطلب اللاحق؛ لأنّ معنى كونه كذٰلك هو أن تكون جميع صفاته وكمالاته

الوجوديّة هي عين ذاته، كما أنّ وجوده عين ذاته.

هٰذا بالإضافة إلى أنّ معرفة المبدإ الإلٰهيّ بهٰذا الوصف (واجب الوجود لذاته) يحلّ الشبهة القديمة الجديدة الّتى طالما تمسّك بها المادّيّون والملحدون، من أمثال برتراند رسل، وريتشارد دوكينز، وهو أنّه إن كان الله ـ تعالى ـ قد خلق العالم، فمن خلق الله[1]؟!

والجواب بكلّ بساطةٍ أنّ السؤال عن علّة الوجود إنّما تكون للأشياء الّتي يعرضها الوجود، كما في هٰذا العالم، حيث إنّ كلّ عرضيٍّ معلّلٌ كما ذكرنا، وأمّا الشيء الّذي يكون الوجود ذاتيًّا له، فلا معنى للسؤال عن علّة وجوده؛ لأنّ الذاتيّ لا يعلّل، كما أنّه لا معنى لأن نسأل عن سبب أبيضيّة البياض أو زوجية الأربعة.

وقد أثبت الحكماء بعقولهم القويمة ـ بناءً على إثباتهم للباري بكونه واجب الوجود بذاته ـ أنّ له كلّ الكمالات الوجوديّة من ذاته، من الوحدة، العلم، والقدرة، والحكمة، والتدبير، وبالتالي فهو الموجود الكامل من كلّ الجهات.

---

(1) دوكينز، وهم الإلٰه، ص ١٢٠.

حقيقة الإنسان:

إنّ معرفة الإنسان حقيقة نفسه معرفةٌ تعدّ من أهمّ المعارف وأشرفها في هٰذه الحياة؛ إذ إنّها تنعكس بقوّةٍ على معرفته بفلسفة وجوده في هٰذا العالم، وتشخيص كمالاته الحقيقيّة المنسجمة مع طبيعته الذاتيّة؛ ولذٰلك تسلّط الضوء على أخلاقه وسلوكه ونمط حياته في هٰذه الدنيا، وفوق كلّ ذٰلك مصيره بعد الموت.

وقد أولى الفلاسفة والحكماء منذ قديم الزمان أهمّيّةً قصوى لهٰذه المسألة، وبحثوا عنها بالتفصيل في علم النفس الفلسفيّ، وأثبتوا عن طريق براهين عقليّةٍ متعدّدةٍ أنّ النفس والذات الإنسانيّة مجرّدةٌ عن المادّة، وأنّ لها قوّةً إدراكيّةً وحركيّةً تدبّر بها البدن المادّيّ، الّذي هو مجرّد آلةٍ لاستكمال النفس الإنسانيّة في هٰذه الحياة، وذٰلك عن طريق الجوارح الخمس والمخّ والأعصاب الّتي تؤمّن للقوّة العقليّة ـ الّتي هي أشرف القوى الإنسانيّة ـ جميع ما تحتاجه من العلوم والمعارف الضروريّة، هٰذا بالإضافة إلى تمكين النفس من تحصيل الفضائل والملكات الأخلاقيّة المختلفة عن طريق الأفعال الاختياريّة، وسوف نشير باختصار إلى بعض هٰذه البراهين بما يتناسب مع البحث هنا، ومن أراد التفصيل فليراجع بحوث علم النفس الفلسفي لكبار الفلاسفة الإلٰهيّين[1]:

(1) ابن سينا، نفس الشفاء، ص ٢٨٨.

البرهان الأوّل: أنّ إدراك المعاني الكلّيّة العامّة المجرّدة عن المادّة، وغير القابلة للانقسام، كالحرّيّة والعدالة، لا يمكن أن يكون موضوعها مادّيًّا قابلا للانقسام، إذن فموضوعها المدرك لها مجرّدٌ عن المادّة كذٰلك.

البرهان الثاني: أنّ الإنسان مدركٌ لذاته، ولديه وعيٌ كاملٌ بإدراكاته وانفعالاته المختلفة، لا كالآلة الحاسبة الّتي تعمل بلا وعيٍ، وهٰذا لا يكون إلّا للمجرّد غير المادّيّ؛ لأنّ العلم هو حضور المعلوم للعالم، والنفس المجرّدة قائمةٌ بنفسها لا بالمادّة، فهي حاضرةٌ بنفسها لنفسها، وهٰذا معنى العلم بالذات، وهو الأمر الّذي لم يفهمه المادّيّون والملحدون.

البرهان الثالث: أنّ القوى العقليّة تشتدّ مع تقدّم العمر، إلّا أن يصاب الدماغ الّذي هو آلتها بمرضٍ يتلفه، والجسم يضعف بمرور العمر، وهٰذا دليلٌ على كون العقل غير الجسم المادّيّ الّذي يتقادم ويصاب بالشيخوخة.

البرهان الرابع: لو تصوّر الإنسان نفسه قد وُجد دفعةً واحدةً في فضاءٍ مظلمٍ، ليس فيه هواءٌ أو صوتٌ أو رائحةٌ، وهو مغمض

العينين، ومفرج الأطـراف، بحيـث تتعطّـل كلّ حواسّـه الخمـس، فنجده مع ذٰلك يدرك وجود ذاته، ويقول: (أنا موجـودٌ)، ممّـا يـدلّنا على مباينة النفس الإنسانيّة للبدن المادّيّ.

ومـن هنـا يتبـيّن أنّ حقيقـة الإنسـان إنّمـا هي بروحـه ونفسـه المجرّدة، لا بجسمه المادّيّ الزائل.

المعاد:

وهو من أهمّ المسائل الّـتي تشـغل بـال أيّ إنســانٍ عاقـلٍ في هٰـذا العالم؛ إذ إنّ الموت هو المصير الحتميّ لكلّ إنسانٍ في هٰـذه الحيـاة، لا يشكّ في ذٰلك مؤمنٌ أو ملحدٌ، فيبقى السؤال عـن وجـود حيـاةٍ بعـد الموت أو عدمها من الأسئلة المصيريّة الّتي لا يمكن للإنسان أن يمـرّ عليها مرور الكرام؛ لأنّ الجواب عليه يؤثّر تأثيرًا حتميًّا على سـلوك الإنسان في هٰذا العالم، وشتّان بين حياة من يرى الدنيـا دار امتحـان لما بعدها، وأنّ الآخرة دار حسابٍ وجزاءٍ، وبين من لا يرى في الموت إلّا العدم والفناء.

وقد أثبت الفلاسفة وجود المعاد أيضًا ببراهين متعـدّدةٍ نشـير إلى بعضها:

البرهان الأول: هو تجرّد النفس الإنسانيّة، وأنّ الموجود المجـرّد لا يفنى ولا يتحلّل، وبالتالي فهو يبقى بعد انفصاله عن البدن بالموت.

البرهان الثاني: لو لم تكن هناك حياةٌ بعـد المـوت، لـكان الخـالق عابثًا وظالمًا لخلقه؛ إذ إنّنا نشاهد في هٰـذه الحيـاة القصـيرة تفـاوت أحوال الناس في الصحّة والمرض، والغنى والفقر، والمظالم والمفاسـد المختلفة، فهناك الإنسان المؤمن الصالح المطيع لله، وهناك الإنسـان الملحد والعاصي، وهناك الإنسان الصادق والنـافع للنـاس، وهنـاك الكاذب والمخادع والظالم للناس، فلو لم تكن هناك حياةٌ بعد المـوت يثاب فيها المحسن، ويعاقب فيه المسـيء، ويسـتردّ المظلـوم حقّـه، ويُعوّض فيها الفقراء والمرضى على كلّ ما عانوه في هٰذه الحيـاة الدنيـا، لكان كلّ هٰذا الوجود الكبـير والتصـميم العظـيم، والعنايـة الفائقـة بوجود الإنسان، وتسخير ما في الأرض والسماء لحياته في هٰذا العالم، عبثًا ومجرّد مسرحيّةٍ تراجيديّةٍ هزليّةٍ، ولٰكنّا قد أثبتنا حكمة الخالق وعدالته ولطفه وعنايته، فلا بدّ أن تكون هناك حياةٌ بعد الموت ينال فيها الإنسان كلّ ما يستحقّه على أحواله وأعماله في هٰذا الحياة.

ثالثًا: النظام الأخلاقيّ العقليّ

إنّ أخلاق الإنسان هي مبادئ سلوكه العمليّ في هٰذه الحياة، سواءٌ مع نفسه أو في تعامله مع الآخرين.

وفلسفة الأخلاق قائمةٌ على ثلاثة أصولٍ عقليّةٍ وجدانيّةٍ، هي:

أنّ الإنسان كائنٌ مختارٌ، لا يفعل إلّا ما يشاء.

أنّه طالبٌ دائمًا للكمال الموجب لسعادته.

أنّه يمكنه أن يحصل كماله المنشود بأفعاله الاختياريّة.

وهٰذا السلوك العمليّ تحكمه مبادئ تُمثّل منطلقاته الذاتيّة الّتي تعيّن طبيعة هٰذا السلوك ومساراته المختلفة في هٰذه الحياة.

والبحث حول مبادئ السلوك الأخلاقيّ الإنسانيّ، هو ما يهمّنا ويعنينا في هٰذا الفصل؛ لكي نستخلص منه بعد ذٰلك باختصارٍ أهمّ مبحثٍ في فلسفة الأخلاق، وهو معرفة المعيار الصحيح للفعل الأخلاقيّ؛ حتّى نتمكن أن نحكم على كون هٰذا الفعل حسنًا أو قبيحًا، ومن الجدير بالذكر أنّ معرفة الجواب الصحيح له أكبر الأثر في تعيين مسير الإنسان ومصيره في هٰذه الحياة الدنيا وما بعدها.

والمبدأ الأوّل من مبادئ الفعل الأخلاقيّ الاختياريّ هو مبدأٌ علميٌّ، وهو معرفة الكمال، أي أنّ هٰذا الفعل فيه كمال للإنسان، فإذا أدرك الإنسان هٰذا الكمال، اشتاق إلى حفظه أو تحصيله، وهٰذا

الشوق يمثّل المبدأ الثاني، فإذا اشتاق إليه، ولم يكن هناك مانعٌ من تحصيله، انبعثت إرادته الجدّيّة لتحريك العضلات نحو الفعل المحصل للكمال المطلوب، أو دفع ما يمنع حصوله، فالإرادة تمثّل المبدأ الثالث من مبادئ الفعل الاختياريّ.

ومن الواضح أنّ الفعل الحسن ليس ما يراه الإنسان مناسبًا له بنحوٍ شخصيٍّ على الإطلاق، وإلّا لانتفى الحسن والقبح الواقعيان، وعمّت الفوضى وانتفت الحاجة إلى القانون والأخلاق، بل هو ما يكون مناسبًا له في الواقع بوصفه إنسانًا ذا روحٍ وبدنٍ، لا لأنّه حيوانٌ فقط، وأن يكون نافعًا أيضًا أو لا أقلّ غير ضارٍّ لغيره من أفراد المجتمع البشريّ؛ لأنّهم يتمتّعون بالحقوق نفسها الّتي يتمتّع هو بها.

ومن الجدير بالذكر ـ وكما سبق وأن أشرنا ـ فإنّ تشخيص الكمال المناسب للإنسان في الواقع إنّما يتوقّف على تشخيص الرؤية الكونيّة الواقعيّة عن حقيقة الإنسان، ومبدئه ومنتهاه، والفلسفة الوجوديّة للحياة في هٰذا العالم، وبيّنّا أنّ تشكيل هٰذه الرؤية الكونيّة الواقعيّة لا يمكن أن تتحقّق إلّا من خلال التفكير العقليّ المنطقيّ المبتني على المبادئ العقليّة الفطريّة البدهيّة، لا التفكير المبتني على الظنون والأوهام والأعراف والاستحسانات الشخصيّة، إذن معيار

الحسن الأخلاقيّ هو أن يكون عقلانيًّا، أي منطلقًا من الأحكام العقليّة المنطقيّة والرؤية الكونيّة الواقعيّة، الّتي تراعي جميع الأبعاد الإنسانيّة المادّيّة والمعنويّة؛ لكي لا يظلم الإنسان نفسه، وكذٰلك تراعي كمالات الآخرين ومشاعرهم، حتّى لا يظلم الإنسان غيره، وإلى هنا نكون قد انتهينا من بيان المنهج العقليّ البرهانيّ في التفكير، ورؤيته الكونيّة، ونظامه الأخلاقي؛ لننتقل بعدها إلى استكشاف نظر الملحدين وآرائهم الفكريّة على هٰذه المستويات الثلاثة؛ لنرى مدى مطابقتها للعقل والعقلانيّة الّتي يدعون الانتساب إليها بديلًا عن الدين.

رابعًا: المنهج المعرفيّ للملحدين

المتتبّع لكلام رموز الملحدين من أمثال هيوم، ورسل، وريتشارد دوكينز، وستيفن هوكنج، يدرك بكلّ سهولةٍ أنّهم لا يؤمنون إلّا بالمنهج الحسّيّ التجريبيّ، ويتنكّرون للمنهج العقليّ التجريديّ، الّذي يمثّل حقيقة المنهج العقليّ، ومن هنا نحتاج إلى بيانٍ مختصرٍ عن صلاحيّة المنهج الحسّيّ، وحدوده المعرفيّة لنتعرّف من خلاله على مدى ارتباط هٰذا المنهج العلميّ بالمنهج العقليّ الفلسفيّ البرهانيّ، وأنّه لا يمكن انفصاله عنه، كما يتوهّم الملحدون.

صلاحيّة المنهج الحسّيّ التجريبيّ وحدوده المعرفيّة

إذا أردنا أن نحلّل طبيعة المنهج الحسّـــيّ التجـريبيّ الّذي تعتمـد عليه اليوم العلوم الفيزيائيّة والكيميائيّة والبيولوجيّة وغيرهـا بنحـوٍ كلّيٍّ وأساسيٍّ، من دون أن يدركوا ـ للأسف ـ فلسـفته أو صـلاحيّته وحدوده العلميّة، فسنجد أنّه يقوم على ركنين أساسيّين:

الأول: هو تكرار المشاهدة الحسّيّة للظواهر الطبيعيّة، أي تكرار صدور الأثر من المـؤثّر، تحـت ظـروفٍ مختلفـةٍ؛ وذٰلـك مـن أجـل استبعاد الأسباب الاتّفاقيّـة الخارجـة عـن طبيعـة المـؤثّر، وإحـراز العلاقة الذاتيّة بين الأثر والمؤثّر.

الثاني: هو الاعتماد على قانون العلّيّة العقليّ في أنّ الأثر الاتّفـاقيّ لا يكون دائميًّا ولا أكثريًّـا، وبضـمّ هـاتين المقـدّمتين إلى بعضـهما البعض نصل إلى نتيجة أنّ هٰذه الظاهرة معلولةً لذات العلّة بالذات، وبالتالي نتمكن من تعميم هٰذه النتيجة في المستقبل بنحوٍ كلّيٍّ، فمثلًا في التجارب الطبّيّة، عندما نجرّب دواءً معيّنًـا يفـترض أنّـه يسـكن الصداع، فعندما نجرّبه تحت ظروفٍ مختلفـةٍ على الذكـور والإنـاث، وعلى الكبار والصغار، وفي كلّ الأمكنة والأزمنة المختلفة، ونجده قد عمل على تسكين الصداع بالفعل دائمًا أو في أكثر الأحيان، نحصـل

على اعتقادٍ يقينيٍّ بأنّ هٰذا الدواء مسكّنٌ لكلّ صداعٍ في المستقبل دائمًا أو في أغلب الأحيان، وذٰلك بالاعتماد على قانون العلّيّة العقليّ.

فمن الواضح إذن أنّ المنهج الحسّيّ التجريبيّ أو ما يسمّونه بالمنهج العلميّ، ليس منهجًا حسّيًّا محضًا كما يتوهّم المادّيّون والوضعيّون، بل هو في الواقع مركّبٌ من مقدّمةٍ حسّيّةٍ، ومقدّمةٍ عقليّةٍ محضةٍ، وهي أصل العلّيّة، ولولا هٰذه القاعدة العقليّة المحضة، ما كان عندنا مسوّغٌ علميٌّ منطقيٌّ لإعمام أحكام التجربة المحدودة إلى المستقبل، وهٰذا هو منهج الحكماء، وليس الأمر كما توهّم علماء الغرب المحدثون أنّ أرسطو والحكماء الماضيين كانوا يعتمدون على العقل التأمّليّ المحض في مباحثهم الفيزيائيّة، وأنّهم لم يكونوا يراعون المشاهدات الحسّيّة! كما يزعم العالم الفيزيائيّ المعاصر ستيفن هوكنج حينما يقول: «والتراث الأرسطيّ يؤمن أيضًا بأنّ المرء يستطيع أن يستنبط كلّ القوانين الّتي تحكم الكون بالفكر الصرف، فليس من الضروريّ التحقّق بواسطة المشاهدة»[1]، وهٰذا افتراءٌ عظيمٌ على أرسطو الّذي يُعدّ بحقّ مؤسّس علم الطبيعيّات، كما تشهد

(1) ستيفن هوكنج، تاريخٌ موجزٌ للزمان، ص ٢٥.

بذٰلك كتبه في علم الفلك والنبات والحيوان والطبّ، كما أنّه افتراءٌ كبيرٌ على الحكماء الّذين كانوا يمارسون الطبّ، ويعالجون المرضى، ويتنبّؤون بالأحوال الفلكيّة من الكسوف والخسوف، وهل كانت كلّ هٰذه العلوم والإنجازات بمحض الحدس العقليّ، دون المشاهدة الحسّيّة؟! وهل بطلان بعض نظريّاتهم العلميّة بتطوّر العلم وأدواته دليلٌ على عدم اعتمادهم على المنهج التجريبيّ، وهل بطلان بعض نظريّات نيوتن ـ أبي الفيزياء الحديثة ـ في الزمان المطلق، أو بطلان نسبية أينشتاين في عالم ما دون الذرّة، هو نتيجةٌ لعدم اعتمادهم على المنهج التجريبيّ؟!

ولٰكن ـ وللأسف الشديد ـ فإنّ العلماء المحدثين في الغرب، بعد تنكّرهم للمنهج العقليّ المحض، واعتمادهم على صرف المشاهدات الحسّيّة والفروض الظنّيّة، أوقعوا أنفسهم في مشكلةٍ حقيقيّةٍ في كيفيّة إعمام النتائج التجريبيّة، بعد إنكارهم لقانون العلّيّة على يد أمثال دافيد هيوم، وكانت وكونت، ومن جاء من بعدهم من أصحاب الوضعيّة المنطقيّة وحلقة فيينا وغيرهم، من المشكّكين الّذين أحيوا رسوم الشكّ والسفسطة.

ونحن هنا لا نريد أكثر من أن ننبههم على هٰذا الخطإ الفادح، وأنّه بدون التسليم بتلك الأحكام العقليّة الأوّليّة المحضة، تفقد التجربة

حجّيّتها، وصلاحيتها العلميّة.

وفي الختام نودّ أن نؤكّد أيضًا على نكتةٍ مهمّةٍ، وهي الحدود المعرفيّة لهٰذا المنهج العلميّ التجريبيّ، ألا وهو أنّه محدودٌ بحدود آليّاته الإدراكيّة، وهي الحواسّ الخمس بارتباطها المباشر مع ظواهر الأجسام الخارجيّة، وهو عاجزٌ عن تجاوز هٰذه الظواهر المادّيّة؛ لكونها حدود واقعيّةٍ تكوينيّةٍ، فلا معنى للفيزيائيّ أو البيولوجيّ من حيث هو كذٰلك أن يبحث عن مباحث فلسفيّةٍ كحقائق الأشياء وعللها البعيدة، أو أن يُفتينا بالرؤية الكونيّة للوجود؛ لوقوعها في مجال وراء مجال هٰذا المنهج الحسّيّ، بل تحتاج إلى منهجٍ آخر مسانخٍ لها، وهو المنهج العقليّ الميتافيزيقيّ.

وهٰذا هو الفرق بين العالم ـ باصطلاح اليوم ـ وبين الفيلسوف الحقيقيّ.

يقول الفيلسوف البريطاني الشهير سير أنطوني فلو الّذي كان من رموز الملحدين قبل إيمانه بالله: «فعند دراسة التفاعل بين اثنين من الأجسام المادّيّة، على سبيل المثال، أو اثنين من الجسيمات ما دون الذرّة، فإنّك تتحدّث في العلوم، عندما تسأل كيف وُجدت تلك الجسيمات ما دون الذرّة ـ أو أيّ شيءٍ مادّيٍّ ـ ولماذا، فأنت تتحدّث في الفلسفة. عندما تستخرج استنتاجاتٍ فلسفيّةً من البيانات

العلميّة، فأنت عندئذٍ تفكّر كفيلسوف»[1].

ثمّ يقول: «فالفيلسوف هو الّذي يخرج من المعلومات العلميّة باستنتاجاتٍ معرفيّةٍ، وربّما لا يعرف الكثيرون من البيولوجيّين عن هٰذه الاستنتاجات أكثر ممّا يعرف بائع الآيس كريم عن القواعد الّتي تحكم البورصة وقوانين السوق الحرّة».

ثمّ يضيف قائلًا: «أنا لا أعترض على أن يخوض العلماء في الفلسفة، لٰكن عليهم أن يحصلوا الخلفيّة الفلسفيّة المناسبة، وعلى كلٍّ، فإنّ العلماء فلاسفةٌ ضعافٌ كما يقول أينشتين»[2].

وسوف نستعرض الآن أقوال بعض رموز الإلحاد في رفضهم للمنهج العقليّ والفلسفة الإلٰهيّة:

1. دافيد هيوم:

يشرح هيوم موقفه من من قانون العلّيّة العقليّ، المستلزم لرفض العلم والفلسفة معًا بقوله: «هب أنّ مجرى الأشياء كان لحدّ اليوم على أكمل انتظامٍ، فإنّ هٰذا الافتراض بمفرده إذا لم تضف إليه أيّ حجّةٍ

---

(1) There is a god, p 13.

(2) عمرو شريف، رحلة عقلٍ، ص ٧٦.

أو استنتاجٍ جديدٍ لا يقيم الدليل على أنّ مجرى الطبيعة في المستقبل سيظلّ كذٰلك، وعبثًا تدّعون أنّكم تعلمتم طبائع الأجسام من تجربتكم السابقة، فقد تتغيّر طبيعتها الخفيّة، وتتغيّر بالنتيجة كلّ مفاعيلها وتأثيراتها من أيّ تغيّرٍ في خصائصها الحسّيّة، وهٰذا أمرٌ يحصل أحيانًا بالنظر إلى بعض الموضوعات، فلماذا لا يجوز أن يحدث دومًا بالنظر إلى كلّ الموضوعات»[1].

ثمّ يبيّن منهجه الحسّيّ ـ المادّيّ، والرافض للمنهج العقليّ التجريديّ وللفلسفة الإلٰهيّة بكلّ صراحةٍ ويقول: «فإذا ما تأبّطنا هٰذه المبادئ، وتقحّمنا المكتبات، فأيّ الرزايا نحن منزلوها بها، سنسأل إذا ما أمسكنا بأيّ مجلّدٍ من مجلّداتها في الإلٰهيّات، أو في ما ورائيّات المدرسة، مثلًا، هل في ذٰلك أيّ استدلالٍ مجرّدٍ حول الكمّ أو العدد؟ كلّا! هل في هٰذا المجلّد أيّ استدلالٍ تجريبيٍّ حول الوقائع والوجود العينيّ؟ كلّا! ألا فألق به إذن إلى ضرام النار، فليس يكون فيه إلّا سفسطةٌ ووهمٌ»[2].

فهو يصف بصراحةٍ المنهج العقليّ التجريديّ اليقينيّ والفلسفة

---

(1) دافيد هيوم، تحقيقٌ في الذهن البشريّ، ف ٤.

(2) المصدر السابق، ف ١٢.

الإلٰهيّة الّتي تمثّل حقيقة العلم والمعرفة بأنّهما مجرّد سفسطةٍ وأوهامٍ! فهل هٰذه هي العقلانيّة المزعومة؟!

2. برتراند راسل:

وهو الأب الروحيّ للتيّار الإلحاديّ الجديد في القرن العشرين، وكتاباته تطفح بالسخرية من المنطق العقليّ والفلسفة الإلٰهيّة.

قال: «فالفلسفة في ذاتها لا تأخذ على عاتقها مهمّة حلّ المشكلات الّتي نعاني منها أو إنقاذ أرواحنا، وإنّما هي نوعٌ من المغامرة الاستكشافيّة أو السياحة الفكريّة الّتي نقوم بها لذاتها»[1].

انظر كيف يصف الفلسفة الإلٰهيّة الّتي هي أمّ العلوم، ومظهر العمق والرصانة الفكريّة، وأرقى التجلّيات الإنسانيّة، ويدّعي أنّها مجرّد مغامرةٍ ونزهةٍ فكريّةٍ، ومع ذٰلك نجد أنّه يرى نفسه، ويراه أتباعه فيلسوفًا عظيمًا!

وقال: «إنّ نظريّة القياس تبدو الآن أقلّ أهمّيّةً إلى حدٍّ ما ممّا كان يُعتقد، وفيما يتعلّق بالعلم فإنّ عمليّة القياس تترك المقدّمات

(1) برترتند رسل، حكمة الغرب، ص ١٨.

دون إثباتٍ، ممّا يؤدّي إلى إثارة مشكلة نقطة البداية»[1].

الّذي ينظر إلى القياس العقليّ ـ الّذي هو أداة العقل الحقيقيّة، والعمدة في الاستدلال المنطقيّ ـ بهٰذه النظرة العبثيّة، وأنّه في الواقع لا قيمة له، ويريد أن يجعل عقله في عينيه، كيف يمكن أن يكون عقلانيًّا؟!

3. نيتشه:

وهو فيلسوف الإلحاد الأكبر، ومؤسّس منطق القوّة، وملهم النازيّة والحركة الفاشيّة.

قال نيتشه: «المنطق وهمٌ مقصودٌ، فمبادئ الفكر ليست غير أوهامٍ ضروريّةٍ للحياة، أو أدواتٍ للظفر والامتلاك» [2].

«إنّ العقل في حياة الإنسان لا حاجة إليه، وهو خطرٌ وغير ممكنٍ، فلا حاجة للعقل في حياة الإنسان، ولأنّ عدم معقوليّة شيءٍ من الأشياء ليست حجّةً ضدّ وجوده، بل بالأحرى إنّها شرطٌ لوجود هٰذا الشيء؛ لأنّ الوجود يتناقض مع العقل، ويتنافى مع المعرفة العقليّة»[3].

---

(1) المصدر السابق، ص ١٢٩.

(2) بدوي، الموسوعة الفلسفيّة، ج٢، ص٥١٣.

(3) المصدر السابق.

أقول: إذا كان المنطق والمبادئ العقليّة الأوّليّة وهمًا وسرابًا، ولا حاجة للعقل في حياتنا، فماذا بقي للعقل والعقلانيّة؟!

خامسًا: الرؤية الكونيّة للملحدين

إنّ رؤية الملحدين لطبيعة الإنسان ومبدئه ومعاده، هي رؤيةٌ ماديّةٌ محضةٌ، مخالفةٌ تمامًا للرؤية العقليّة.

والسبب الرئيس الّذي يكمن وراء هٰذه الرؤية المادّيّة هو حصر اعتمادهم في معرفة الواقع على المنهج الحسّيّ التجريبيّ، الّذي يعتمدون عليه في الفيزياء، وهو أمرٌ خلاف ضروريّات المنطق العقليّ؛ لأنّ منهج البحث حول أيّ موضوعٍ يعيّنه طبيعة الموضوع المبحوث عنه بنفسه، فموضوع الفيزياء الّذي هو الجسم والظواهر الطبيعية المادّيّة، يفرض منهجًا علميًّا مسانخًا له، وهو المنهج الحسّيّ التجريبيّ، ولٰكنّ موضوع الهندسة المتعلّق بالأشكال الهندسيّة، لا يمكن فحصه بالتجربة، وإنّما بالمنهج العقليّ التحليليّ، ولٰكن بمساعدة الحسّ، لأنّ موضوعاته محسوسةٌ، أمّا موضوع علم التاريخ مثلًا، وهو الحوادث التاريخيّة الماضية، فلا يمكن اعتماد المنهج الحسّيّ التجريبيّ أو التحليليّ لتحقيق مسائله، وإنّما نعتمد على

المنهج النقليّ للنصوص التاريخيّة.

وأمّا البحث في القضايا الفلسفيّة الميتافيزيقيّة المتعلّقة بحقائق الأشياء، وعللها البعيدة المتعلّقة بأصل وجود الإنسان والعالم ومبدإ الحياة، والحياة بعد الموت، ومبادئ القيم الأخلاقيّة، فلا معنى لاعتماد المنهج الحسّيّ التجريبيّ أو التحليليّ في إثبات أو نفي مسائلها؛ لأنّها بكلّ بساطةٍ مسائل غير محسوسةٍ، وهي في نفس الوقت مسائل ضروريّةٌ ومصيريّةٌ لحياة الإنسان، ولا يمكن الاستغناء عنها أو إغفالها؛ فالمنهج المسانخ والمناسب لها هو المنهج العقليّ البرهانيّ التجريديّ الّذي سبق وأن أشرنا إليه.

ولٰكنّ مشكلة الملحدين وغيرهم من المذاهب المادّيّة أنّهم لا يؤمنون بهٰذا المنهج العقليّ التجريديّ، الّذي يمثّل المنهج العقليّ الحقيقيّ كما بيّنّا؛ وذٰلك بعد أن امتلأت عقولهم، وشُحنت نفوسهم بسفسطات بيكون ولوك وهيوم وكانت ورسل ونيتشه وغيرهم من أعداء العقل التجريديّ على مدى قرونٍ مديدةٍ، وسنستعرض بعض آرائهم الفلسفيّة عن الإنسان والمبدإ الإلٰهيّ والمعاد؛ ليتبيّن مدى مخالفتها للمنهج العقليّ السليم.

الإنسان في نظر الملحدين

بطبيعة الحال، فإنّ من يحصر رؤيته للأشياء في المنهج الحسّيّ التجريبيّ، ويعطّل المنهج العقليّ التجريديّ، لا يمكن أن نتوقّع منه رؤيةً واقعيّةً لحقيقة الإنسان المجرّدة عن المادّة، وهٰذه بعض أقوال الملحدين في الإنسان.

قال دوكينز : «أمّا جدليّة هٰذا الكتاب، فتقوم على واقع أنّنا نحن البشر، وغيرنا من الحيوانات، نكون آلاتٍ تولّدها جيناتنا، فعلى غرار عصابات شيكاغو الناجحة، تمكّنت جيناتنا من البقاء على مرّ ملايين السنين، في عالمٍ محكومٍ بالتنافسيّة الشديدة، وهٰذا يخوّلنا أن نتوقّع تحلّي جيناتنا ببعض المزايا، ولا بدّ من التأكيد أنّ الأنانيّة المطبوعة بانعدام الشفقة هي ميزةٌ طاغيةٌ يتوقّع توافرها لدى الجينة الناجحة، وفي العادة ستؤدّي أنانيّة الجينة إلى تعزيز الأنانيّة في السلوك الفرديّ»[1].

أقول: انظر كيف يؤصّل للشرّ في فطرة الإنسان، ويُمثّل الجينات الإنسانيّة بعصابات شيكاغو الناجحة! وهٰذا ليس بمستغربٍ ممّن يؤمن بالانتخاب الطبيعيّ، وأنّ البقاء للأصلح، ويتنكّر لنظام الحكمة العقليّة الإلٰهيّة.

---

(1) دوكينز، الجينة الأنانيّة، ص ١١.

ثمّ يعود دوكينز ليؤصّل حيوانيّة الإنسان، ويدّعي أنّ الإنسان هو ابن عمّ القردة والشمبانزي، وبالتالي فسيكون الاختلاف شكليًّا غير جوهريٍّ[1].

الله في نظر الملحدين:

على الرغم من كلّ البراهين العقليّة القطعيّة الواضحة، والمبتنية على مبادئ بدهيّةٍ عقليّةٍ ضروريّةٍ على إثبات وجود المبدإ الإلٰـهيّ، إلّا أنّ الملحدين ضربوا بكلّ هٰذه البراهين عرض الجدار، على أساس أنّها لا تستند إلى أدلّةٍ علميّةٍ ملموسةٍ، غافلين عن أنّ إنكار هٰذه المبادئ العقليّة الضروريّة يؤدّي إلى سقوط الصلاحيّة العلميّة لما يسمونه بالأدلّة العلميّة التجريبيّة، كما بينّا سابقًا.

ومع كلّ هٰذا الاستخفاف بالأدلّة والبراهين العقليّة نجدهم يرفعون شعار العقلانيّة!

ولنستعرض الآن بعض كلمات رموز الإلحاد المعاصرين في أصل صدور الكون، وردّهم للبراهين العقليّة، والفلسفة الإلٰهيّة القائمة عليها.

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=eIChY_Skd7g

1. لورانس كراوس

«إنّ هناك شيئًا واحدًا مؤكّدًا، هو أنّه لا يوجد أساسٌ علميٌّ للقانون الميتافيزيقي "لا يخرج شيءٌ من لا شيء"... إنّ كلّ ما يمثّله هٰذا هو عدم الرغبة وفقد الإرادة في إدراك حقيقةٍ بسيطةٍ مؤدّاها أنّ الطبيعة قد تكون أذكى من الفلاسفة ورجال اللاهوت»[1].

انظر أوّلًا في نفيه لأصل العليّة البدهيّ ووصفه إيّاه بأنّه ليس ذا أساسٍ علميٍّ، مع كونه أساس كلّ الأدلّة العلميّة، وإلّا لماذا يتعب نفسه في البحث عن علل الظواهر الطبيعيّة كفيزيائيٍّ؟!

ثمّ انظر ثانيًا إلى تفضيله الطبيعة الصمّاء العمياء على الفلاسفة والمتكلّمين العقلاء!

«في هٰذه الحالة تصبح الإجابة عن السؤال "لماذا هناك شيءٌ بدلًا من لا شيء" تافهةً تقريبًا، هناك شيءٌ ما؛ لأنّه ببساطةٍ لو لم يكن هناك شيءٌ، فلن نكن لنجد أنفسنا نعيش هنا»[2].

يعني أنّ جوابه على السؤال القائل: لماذا هناك شيءٌ؟ هو: لأنّ

(1) كراوس، كونٌ من لا شيء، ص ٢٢٢.

(2) المصدر السابق، ص٢٢٤.

هناك شيئًا! وهو أمرٌ مضحكٌ.

وعندما سئل عن ما يعنيه من اللا شيء، قـال: «أعتقـد أنّ مـن المفيد بشكلٍ أكبر، أن نبني تعريفاتنا على وقائع مكتشـفةٍ إمبريقيًّـا، بدلًا من أن نبنيها على مبادئ فلسفيّةٍ مجرّدةٍ»[1].

وهنا يتنكّر مرّةً أخرى للمبادئ العقليّة الأولى الّتي تُعـدّ أسـاس العلم.

وقال أيضًـا: «قـد تكـون الـلا مـادّة ليسـت الـلا شيء بـالمعنى الكلاسيكي؛ ولهـذا فـإنّ الشـكل الأوّل مـن الـلا شيء هـو الفضـاء الفارغ... فشرحت كيف يمكن أنّ الفضاء والزمان منبثقان من اللا مكان واللا زمان، وهو قريبٌ جدًّا بالتأكيد من اللا شيء المطلق»[2].

ثمّ قال ريتشارد دوكينز معلّقًا على هٰذه الهـذيانات الـلا معقولـة: «إذا كان يمكن أن يتسطّح شيءٌ ما إلى لا شيء، ألا يمكن أن ينبثـق اللا شيء إلى فعل، ويعطي الميلاد إلى شيءٍ مـا؟ أو لمـاذا هنـاك شيءٌ بدلًا من لا شيء؟ حسب السؤال اللاهوتيّ المكرّر، هنا لعلّنـا نصـل

(1) المصدر السابق، ص٢٤١.

(2) المصدر السابق، ص٢٤٢.

إلى أكثر درسٍ رائعٍ تقريبًا نتعلّمه مع الانتهاء من كتاب لورانس كراوس»[1].

أليس هٰذا عين التناقض والهلوسة أن يخرج الشيء من اللا شيء؟! وهل هٰذه هي العقلانية؟!

2. ستيفن هوكنج

ها هو الفيزيائيّ الإنجليزيّ الملحد المعروف يطلّ علينا ليعلن موت الفلسفة، وأنّ الفيزيائيّين قد أصبحوا ورثة الفلاسفة، وأنّهم هم المعنيّون بالإجابة على كلّ الأسئلة الفلسفيّة بما لديهم من علومٍ ومعارف طبيعيّةٍ!

«عادةً ما يسأل الناس عددًا من الأسئلة، مثل: كيف يمكننا فهم العالم الّذي وجدنا أنفسنا فيه؟ كيف يتصرّف الكون؟ ما حقيقة الواقع؟ من أين أتى كلّ ذٰلك؟ هل الكون كان بحاجةٍ لخالقٍ؟ كانت تلك الأسئلة التقليديّة للفلسفة، لٰكنّ الفلسفة قد ماتت، ولم تحافظ على صمودها أمام تطوّرات العلم الحديثة، وخصوصًا في مجال

(1) المصدر السابق، ص ٢٣٧.

الفيزياء، وأضحى العلماء هم من يحملـون مصـابيح الاكتشـاف في رحلة التنقيب وراء المعرفة»[1].

أقول: هل المنهج العلميّ المنطقيّ أن نبحث عن أمورٍ غير محسوسةٍ بالمشاهدات الحسّيّة؟! فليس بمستغربٍ بعـد ذٰلـك أن يعلـن مـوت الفلسفة الّتي لم يفهم معناها، ويتنكّر بعد ذٰلك لوجـود خـالق هٰـذا الكون، وللحياة بعد الموت.

ثمّ يعبّر عن رؤيته الكونيّة اللا عقلانيّة بقوله:

«فإنّ الكون يمكنه أن يخلق نفســه مـن لا شيء، وسـوف يفعـل ذٰلك بالطريقة الّتي تمّ وصفها في الفصل السادس، والخلـق التلقـائيّ هو السبب في أنّ هنـاك شـيئًا بـدلًا مـن الـلا شيء، فلمـاذا يوجـد الكون؟ ولماذا نوجد نحن؟ ليس من الضـــروريّ أن نستحضـــر إلٰهًـا لإشعال فتيل الخلق، ولضبط استمرار الكون»[2].

أليس هٰذا نوعًا من الهذيان الصريح، أن يخلق الشـيء نفسه، أو يخرج الكون من لا شيء؟! أين العقل السليم في هٰذا؟

---

(1) هوكينج، التصميم العظيم، ص ١٣.

(2) المصدر السابق، ص ٢١٦.

3. ريتشارد دوكينز

«لنعد للتراجع الزمنيّ اللا نهائيّ، والعبث النـاتج مـن إدخـال إلٰهٍ لحلّ الموضـوعِ؛ لأنّـه مـن الأرخـص استحضـار شيءٍ مـا كنظريّـة الانفجار العظيم، أو أيّ مبدإٍ فيزيائيٍّ غير مكتشفٍ بعد»[1].

أليس هٰذا استهزاءً بالأحكام العقليّة أن يُرجع التسلسل إلى مبدإٍ فيزيائيٍّ؟! إذ إنّ هٰذا المبدأ إن كان حادثًا فهو أحد حلقات السلسـلة، وإن كان أزليًّا، فإن كان وجوده من ذاته، فهو نفـس المبـدإ الإلٰـهيّ، ولـيس بمبـدإٍ فيزيـائيٍّ جسـمانيٍّ، وإن كان مـن غـيره لـم ينقطـع التسلسل.

الحياة ما بعد الموت عند الملحدين

أقـول: إنّ مسـألة الحيـاة بعـد المـوت مـن الأمـور الّـتي تـؤرّق الملحدين، وهٰذا الأرق في الواقع له ما يبرّره؛ لأنّهم غير قاطعين بعدم المعاد، ولا بعدم وجود الإلٰه، ومع وجود الاحتمـال وقـوّة المحتمـل، يصبح هٰذا الأرق طبيعيًّا.

وإنكار الحياة بعد الموت هـو في الواقـع إنكـارٌ للبراهـين العقليّـة

---

(1) دوكينز، وهم الإلٰه، ص ٨٠.

القطعيّة القائمة على تجرّد النفس الإنسانيّة، وإنكارٌ للحكمة الألٰهيّة، وتكريسٌ للنظرة العبثيّة اللا عقلانيّة.

ولنستعرض الآن بعض أقوال زعيم الملحدين وملهمهم في العصر الحديث ريتشارد دوكينز؛ ليتبيّن للقارئ الكريم مدى عدم عقلانيتهم، وتخبّطهم.

يقدّم دوكينز عزاءه الأوّل للملحدين بقوله: «يشير أحد الفلاسفة [مجهول الهويّة] بأنّه لا شيء يستحقّ الذكر يحصل عندما يموت إنسانٌ كبيرٌ في السن، فالطفل الّذي كان، هو سابقًا قد مات منذ فترةٍ طويلةٍ، وليس بسبب توقّفه عن الحياة فجأةً بل بسبب بلوغه، إنّ كلّ واحدٍ من أعمار شكسبير السبع، يموت بانتقاله ببطءٍ من مرحلةٍ لأخرى، ومن وجهة النظر هٰذه، فإنّ تلاشي الرجل العجوز لا يختلف كثيرًا عن موتاته البطيئة خلال حياته، والشخص الّذي يكتئب من فكرة موته، ربّما يجد العزاء في وجهة النظر الجديدة هٰذه، وربما لا، ولٰكنّ هٰذا مثالٌ فقط عن قدرة العزاء بالتأمّل»[1].

ثمّ يقدّم العزاء الثاني قائلًا: «أمّا طريقة مارك توين باستبعاد الخوف من الموت فهي شيءٌ آخر: "أنا لا أخاف الموت، لقد كنت ميّتًا

---

(1) المصدر السابق، ص ٣٥٩.

لمليارات السنين قبل أن أولد، ولم يسبّب لي ذٰلك أيّ حرجٍ" هٰذا البيان لا يغيّر من الواقع شيئًا بحتميّة الموت، ولٰكنّه يعطينا طريقةً جديدةً لرؤية تلك الحتميّة، وربّما يكون فيها بعض العزاء»[1].

أقول: بدايةً أترك الفرصة للقارئ الكريم، بما فيهم الملحد، للتعليق على هٰذه الترّهات الّتي تمثّل أعلى درجات خداع النفس، فالقارئ يعلم جيّدًا أنّ الموت في نظر أيّ ملحدٍ هو العدم بعد الوجود، وهٰذا العدم يتمثّل عند الأطبّاء في الانطفاء التدريجيّ لمظاهر الحياة، فغالبًا ما تبدأ ضربات القلب في الخمود، ويتعذّر عليه التنفّس الطبيعيّ، ويشعر بالاختناق، ويبدأ في الارتعاش، وينخفض ضغط الدم والحرارة، ويبدأ بفقدان الوعي بالتدريج، والله وحده العالم بما يحدث بعد ذٰلك من أهوالٍ جسمانيّةٍ، بل ونفسيّةٍ مرعبةٍ من الإقبال على أمرٍ مجهولٍ، قبل أن ينطفئ نور الحياة بالكلّيّة.

ولٰكن السيّد دوكينز عالم الحياة البيولوجيّة الكبير يشبّه لنا هٰذا الموت في العزاء الأوّل، بوصول الطفل إلى مرحلة البلوغ، وهو يعلم قبل غيره أنّ البلوغ هو مرحلةٌ تكامليّةٌ من الناحية البيولوجيّة، وليس مرحلةً عدميّةً، وكذٰلك التكامل الجسمانيّ والعقليّ والعلميّ

---

(1) المصدر السابق.

على مرّ الزمان، إنّما هو في الواقع انتقالٌ من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ أكمل منها.

أمّا في عزائه الثاني فهو أعجب، إذ يمثّل الموت الّذي هو العدم بعد الوجود، بالعدم قبل الوجود، وهو يعلم جيّدًا الفرق الكبير بينهما، بل هما أمران متقابلان، وهل كان للإنسان وجودٌ قبل وجوده حتّى يُبتلى بمصيبة الموت أو يعاني منها؟! وهل هٰذا إلّا تخريفٌ وهلوسةٌ؟!

ثمّ يرجع ويقول: «عندما سأشرف على الموت، فإنّي أرغب بأن تطفأ حياتي تحت المخدّر العامّ، تمامًا كما لو كانت زائدةً دوديّةً ملتهبةً»[1].

من الواضح أنّ الرجل لا يدري ماذا يقول، فتارةً يقول الموت ليس إلّا كبلوغ الطفل الصغير، أو مراحل العمر التدريجيّة، وتارةً يقول إنّه كما كنّا في الماضي قبل أن نوجد، والآن يقول إنّه كالزائدة الدوديّة الملتهبة، وأتمنّى لو تم تخديري بالكلّيّة بالمخدّر العامّ! فهل هٰذا التخبّط والهلوسة هي العقلانيّة المقصودة عندهم؟!

---

(1) المصدر السابق، ص ٣٦٢.

سادسًا: الأخلاق عند الملحدين

من الطبيعيّ لمن يتنكّر لوجود الروح الإنسانيّة المجرّدة، وللقيم الإلٰهيّة السامية، وليوم الحساب، أن تكون القيم الأخلاقيّة عنده مجرّد قيمٍ نفعيّةٍ مادّيّةٍ، وأن تكون الحرّيّة الحيوانيّة ـ لا العقليّة ـ عنده المبدأ الأخلاقيّ الأوّل، ونحن لا نمنع أن يكون الإنسان الملحد ـ من حيث هو إنسانٌ ـ متمتّعًا بدرجةٍ من الصلاح انطلاقًا من القيم الإنسانيّة العامّة المشتركة بين كلّ الناس كحسن العدل وقبح الظلم، وحسن الأمانة وقبح الخيانة، والدين ما جاء إلّا لتتميم مكارم الأخلاق، ولٰكن ما نريد أن نقوله أنّ مثل هٰذا الإنسان الملحد سيكون أميل للشرّ منه للخير؛ للأسباب الّتي ذكرناها.

ولننقل الآن بعض أقوال فلاسفة الأخلاق الملحدين؛ لنرى مدى ابتعادهم عن العقل والعقلانيّة الإنسانيّة:

1. بنتام:

وهو من كبار فلاسفة الأخلاق الملحدين

«إنّ الطبيعة وضعت بني الإنسان تحت سيطرة حاكمين ذَوَيْ سيادةٍ، هما الألم واللذّة، وهما يحملاننا في كلّ ما نفعل، وفي كلّ ما نقول، وفي كلّ ما نفكّر فيه، وكلّ محاولةٍ يمكن أن نبذلها من أجل

التخلّص من استعبادنا لهما لن تفلح إلّا في إثبات هٰذه الحقيقة وتوكيدها. وربّما زعم الإنسان بالقول، رفض سلطانهما، أمّا بالفعل وفي الواقع فإنّه سيبقى خاضعًا لهما دائمًا»[1].

يعنى أنّه لا يوجد دافعٌ إنسانيٌّ للإنسان في كلّ سلوكيّاته وراء الدواع الغريزيّة الحيوانيّة، ويستحيل التخلّص من تلك الدوافع القاهرة، وهو هنا يُكرّس لأصالة اللذّة وحاكميّة الغرائز الحيوانيّة، وينفي أيّ دورٍ للعقل في سلوك الإنسان، فهل هٰذه هي العقلانيّة والإنسانيّة.

2.نيتشه:

وهو من أكبر فلاسفة ورموز الإلحاد، وهو مؤسّس نظريّة منطق القوّة في الحياة، حيث يعدّ العدالة مصلحة الأقوى، والقيم الأخلاقيّة وسيلة الضعفاء للتساوي مع الأقوياء، والأخلاق نسبيّة المنشإ، فهناك أخلاق السادة الرفيعة وأخلاق العبيد الوضيعة!

يقول: «في أثناء رحلاتي الّتي قمت بها خلال أنواع الأخلاق الرفيعة والوضيعة الّتي سادت العالم، والّتي ما زالت تسوده إلى

---

(1) بنتام، مقدّمةٌ إلى مبادئ الأخلاق والتشريع، ف ١، بند ١.

اليوم... استطعت أن أكتشف وجود نوعين رئيسـيّين مـن الأخـلاق مختلفين اختلافًا جوهريًّا، فهناك أخلاقٌ للسادة وأخرى للعبيد»[1].

ثمّ يقول: «لٰكنّ المسود لا يستطيع أن يسمّي هٰـذه الصـفات الّـتي يجلّها ويرى فيها الخير بأسمائها الحقيقيّة، وإنّما يقلب القيم ويسمّيها بعكس مـا هي عليـه في الواقـع، فيسـمّي العجز"إحسـانًا وطيبـةً"، ويسمّي عدم قدرته على ردّ الفعل مباشرةً وبالمثل "صبرًا"، ويعدّ هٰـذا الصبر من أمّهـات الفضـائل... ويسـمّي عجـزه عـن إدراك المطـامع السامية والبحث عن المطالب العالية "تواضعًا" وهٰكذا»[2].

انظر كيف يفسـّر الأخلاق والقيم الإنسانيّة السامية المطلقة على أنّها سبيل العاجز، ومظهر الضعف والهوان، وهٰذا هو منطـق القـوّة الّذي أضفى الشرعيّة على الطغاة والمستبدّين.

ولذٰلك يقول هنري مـوريس الفيلسـوف الأمريكـي في نيتشـه: «أمّا فلسفة نيتشه فقد أثّرت بعمقٍ في اتّجاهـات السياسـة الألمانيّـة، حتّى أصحبت أساس القوّة الحربيّة الألمانيّة المكثّفة الّتي حشدتها في فترة الثلاثينيّات من هٰذا القرن، وكانت سـببًا مـن أسـباب الحـرب العالميّة الثانية، وكان موسيليني واحدًا من أكبر المتابعين المتحمّسـين

---

(1) بدوي، الموسوعة الفلسفيّة، ج ٢، ص ٥١٠.

(2) المصدر السابق، ص ٥١١.

لنيتشه، وكانت الفاشيّة هي النتيجة النهائيّة، كـذٰلك وُلدت النازيّـة في نفس البالوعة»[1].

فالحاصل أنّ الرؤية الأخلاقيّة للملحدين رؤيةٌ مادّيّةٌ ذات دوافـع حيوانيّةٍ، وأنّ فضائل الأخلاق العقليّة كالعـدل والإحسـان والعفّـة والتواضع، ليست إلّا مجرّد وسيلةٍ للعاجز الضـعيف، مـا يلبـث أن يتخلّى عنها عند تحصيله للقـوّة والسـلطة، وهي رؤيـةٌ لا عقلانيّـة بامتيازٍ.

إلى هنا نكون قد أثبتنا بالدليل والبرهـان، وبالنقـل المبـاشر مـن أقوال رموز الإلحاد، وبمـا يتناسـب مـع هٰـذه الرسـالة المختصرـة، اتّجاههم اللا عقلاني المحض المعادي للعقل والعقلانية الحقيقيّة على كلّ المستويات المنهجيّة والفلسفيّة والأخلاقيّة، وأنّ شعار العقلانيّة الّذي يرفعونه، ويختبئون وراءه ليس إلّا شعارًا مزيّفًا، وليس هنـاك في الحقيقة عندهم إلّا المنهج الحسـّيّ السـطحيّ المحـدود، والرؤيـة المادّيّة الظاهريّة، والأخلاق الغرائزيّة الحيوانيّة.

وإذا كان الأمر فيتبين الجواب على السؤال المطروح، هـل يمكـن أن يكون الإنسان العاقل ملحدًا؟

فنقول ليس العاقل هو الّذي يتحرّر من كلّ قيدٍ وقانونٍ في تفكيره

---

(1) موريس، الكتاب المقدّس ونظريّات العلم الحديث، ص ٥٢.

كما يتوهّم المادّيّون، بل العاقل هو الّذي يلتزم بالمبادئ العقليّة البدهيّة والقوانين المنطقيّة في تفكيره، ويبني رؤيته الكونيّة عن الإنسان ومبدئه ومنتهاه، وقيمه الأخلاقيّة، ونمط سلوكه في الحياة، على أساس المنهج العقلي السليم، لا على أساس الإحساس والمشاعر والأعراف والاستحسانات الشخصيّة.

فالتفكير العقليّ المنطقيّ الموضوعيّ لا يؤدّي بالإنسان إلّا إلى الإيمان بالإلٰه العليم القدير الحكيم، الّذي صمّم هٰذا العالم على أحسن صورةٍ، والإيمان بروحانيّة الإنسان، وبقائه بعد الموت في حياته الأبديّة الأخرويّة.

أمّا الاكتفاء بالمنهج الحسّيّ السطحيّ، والرؤية الكونيّة المادّيّة الظاهريّة، والنظرة العبثيّة العدميّة للحياة، فمجرّد نظرةٍ حيوانيّةٍ طفوليّةٍ، وهو في الواقع أبعد ما يكون عن العقل والعقلانيّة.

ومن هنا يعلو صوت الضمير الإنسانيّ مردّدًا: إن كنت عاقلًا.. فكيف تكون ملحدًا؟!

المصادر:

1. إدوارد ي بونو، تعليم التفكير، دار الرضا للنشر والتوزيع، ط 1، 2001.
2. ريتشارد دوكينز، وهم الإله، ترجمة بسام البغدادي، شبكة الملحدين العرب.
3. ستيفن هوكنج، التصميم العظيم، ترجمة أيمن عياد، دار التنوير للطباعة والنشر، ط 1، 2013.
4. الحسين بن عبد الله بن سينا، النفس من كتاب الشفاء، تحقيق حسن زاده آملي، مكتب الإعلام الإسلامي، إيران، 1417 هـ.
5. ستيفن هوكينج، تاريخٌ موجزٌ للزمان، ترجمة مصطفى فهمي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2006.
6. عمرو شريف، رحلة عقلٍ، مكتبة الشروق، مكتبة الشروق الدوليّة، 2011.
7. دافيد هيوم، تحقيقٌ في الذهن البشريّ، ترجمة محمد محجوب، المنظّمة العربيّة للترجمة، ط 1، 2008.
8. برتراند راسل، حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريّا، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، 2009.

9. عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفيّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ط 1، 1984.

10. ريتشارد دوكينز، الجينة الأنانيّة، ترجمة تانيا ناجيا، دار الساقي ـ بيروت، ط 1، 2009.

11. لورانس كراوس، كونٌ من لا شيء، ترجمة غادة الحلواني، منشورات الرمل ـ مصر، ط 1، 2015.

12. جيرمي بنتام، مقدّمةٌ إلى مبادئ الأخلاق والتشريع، ترجمة كريم الصيّاد، مكتبة الملك فهدٍ الوطنيّة، 1434 هـ.

13. هنري موريس، الكتاب المقدّس ونظريّات العلم الحديث، دار الكتب والوثائق الوطنيّة، العراق.

المحتويات